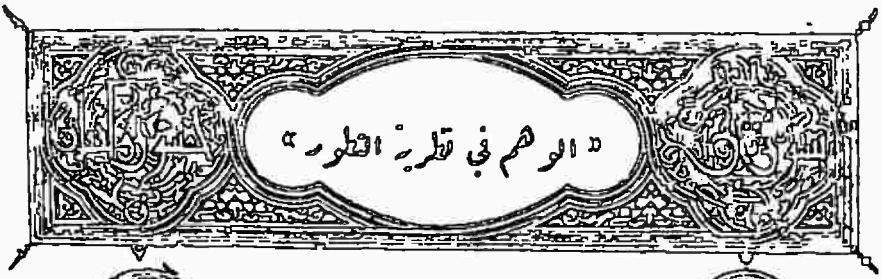

كتاب للاستاذ لويس ڤيالتون

بقلم الاب فليكس سوانيون اليسوعي
استاذ الفلسفة في كلية القديس يوسف

١ الضجة حول الكتاب

كثيرًا ما يلهج ارباب البحث اليوم بازمة عارضة لنظرية التطوّر. ولكن هل هي ازمة الموت ، ام ازمة النموّ والتقدّم ؟ من شاء الجواب عن هذا السؤال فليقرأ كتاب الاستاذ لويس ڤيالتون : « اصل الكائنات الحية ؛ الوهم في نظرية التطوّر. »[1]

لقد احدث هذا الكتاب تأثيرًا يُذكر. فقام اعداء « التطوّر » يُطنون ظفرهم ضاجّين صاخبين . ولم يعد بالامكان اليوم ، في عرفهم ، ان تُنكر تلك النظرية الحيويّة باسم اللاهوت او باسم ما وراء الطبيعة وحدهما . اذ لم يبقَ لهذا الضرب من البراهين ، كما يدّعون ، الّا فائدة نوع على وشك الاضمحلال ، فائدة بسيكولوجية او تاريخية . . . فعليهم اذًا ان ينقشوا عن براهين علمية خاصة بالبحث ، وعن رجال يمثلون السلطة العلمية في هذه الموضوعات . والحال ان الاستاذ ڤيالتون من نوع هذه السلطات ، ومن ضرب هذه البراهين ، وهو افضل ما ظهر لهم فتبعوه . . .

واذًا فانهم اسرعوا الى قراءته في نشوة الظفر ، بل اسرعوا في قراءته . .

---

١) هذا عنوان الكتاب باللغة الفرنسوية : Louis Vialleton, L'origine des êtres vivants, l'illusion transformiste. *Plon*, 1929 وقد طلبنا الى حضرة الاب سوانيون درسه ، فأتانا بهذا المقال الذي بذلنا الجهد في تعريبه تعريبًا حرفيًا . ف . ا . ب .

فتصفحوه دون توقف . ولِمَ التوقف؟ أوَ ليس العنوان الثنوي واضحاً صريحاً ؟ أوَ ليس في الكتاب من التعابير ما يظهر اقوى لهجة واقسى حكماً من ذاك العنوان ؟

علينا بالتأني ، ولا نتسرعنَّ في تكفين نظريّة « التطوّر » بالاستناد الى عنوان ثنوي ، ولا الى الكتاب . ولنبدأ بالقراءة ، فالتفهّم ، فالحكم بانفسنا ، على قدر الامكان ، على صحة ما يُعرض امامنا .

٢ مصطلحات الاستاذ فيالتون

من بديهيات النقد أنه على الناقد ان يفهم مراد المؤلف في التعبير الذي استعمله .

ومؤلفنا يقول : « نظرية التطوّر وهم . » حسن ! ولكن الاستاذ ڤيالتون يقول ايضاً ان « كلمة التطوّر (transformisme) تدلّ على مذهب حِيَلي (mécaniste) » (ص ٣٦١-٣٦٧) وانها « تدلّ على نظرية ظاهر عجزها عن القيام بما يُطلب عنها » (ص ٣٦٥) لانها « تزعم خروج عالم الاحياء من عبث القوى الصياء غير المسيّرة » (ص ٣٦٧) .

هذا وان مدلول الارتقاء (évolution) اقلّ ضبطاً في التحديد (ص ٣٣١) . اذ يقول المؤلف . « قد يمكن ان يكون ارتقاء حِيَلي كما قد يكون ارتقاء مُسيَّر (ص ٣٦١) : ويجب ان تفهم لفظة الارتقاء (في الاستعمال الجاري) على عكس ما تفهم به لفظة التطوّر » (ص ٣٦٣) .

واذاً فيكون ، والحالة هذه ، لا تطوّر ، بل ارتقاء في الكائنات الحية ؟

– نعم ! يجيبنا المؤلف .

٣ نظريّة الاستاذ ڤيالتون الوضعيّة

١ – الارتقاءات الجزئية في الجماعات السفلى

لا يخفى ان التصنيف الحيوي ، او تصنيف الاحياء ، يتألف من جماعات متدرّجة مراتبها من اعلى الى اسفل ، متصلة حلقاتها بعضها ببعض من الشعبة

حتى النوع الاخير . على ان جميع هذه المراتب لا تظهر بالمظهر نفسه اذا ما اعتبرناها من حيث الارتقاء

اذا اعتبرنا الانواع والاجناس، فيمكننا، بل يجب علينا، ان نُقرّ بارتقاء حقيقي مستديم فيها، اي بان الامثلة (types) القديمة من الاحياء تتطوّر تطوّرات متتابعة متدرّجة . « وان في الطبيعة فئات ، او امثلة من الاحياء، متباينة كل التباين تمثل انواعاً بعينها ، وتكون قابلة للتنوّع دون شك ، بل قد تكون متفرّعة بعضها عن البعض الآخر . » (ص ١٧٥ ثم قابل ١٠ جا. في الصفحات I وII و٣٧٤) . ويظهر ايضاً ان الاستاذ ڤالتون يرى ان هذا الارتقاء قد يحصل على طريقة حيلية مجثة ، اي دون ادارة عاقلة، ولا قصد سابق ، ولا غاية . (ص ٣٦٥) بل قد ينتج ذلك بفعل التبليد وبتأثير الظروف الخارجية (ص I وII).

على انه يرى الامر على خلاف ذلك عند ما يخرج من هذه التشعّبات القليلة والمحدودة المجال (ص ٣٧٤).

وها نحن نتكلم اولاً على الاصول الاولية .

ب — تعدّد الاعراق (Polygénisme).

لقد وُجد منذ البدء عدد كبير من الامثلة الحية المتميزة بصفات خاصة والمكملة بعضها البعض الآخر حتى تألف منها جميعاً « عالم متميّز كامل اي مشتمل على جميع مراتب القوى والتنوّعات اللازمة لتأمين نشر مقدّرات الحياة افسح نشر » (ص ٣٤٩) « وقد وجب وجود ما يبدع المواد العضوية ، اي كائنات يمكنها ان تستعمل هذه المادة في غاية غير التجميعات العضوية او الآلية ، وخصوصاً في اعمال الحسّ والحركة . » (ص ٣٦١). « ومما لا شك فيه ان اول عالم حيّ كان كاملاً متنوّعاً . » (ص ٣٦٢)

ج — الارتقاء العامّ

اذا جمعنا بين العلوم المختصة بدرس اشكال وانواع الحيوانات والنباتات المنقرضة يدفع بنا ذلك الى ان نميّز بين الجماعات العليا امثلة ندعوها ترتيبية (types d'organisation) واخرى ندعوها صورية (types formels) . ثم نرى ان الامثلة الترتيبية ، وهي الاولية ، قليلة العدد لا تتجاوز الستين في

المملكة الحيوانية بمجموعها قديمة. وقد كان ارتقاؤها - ان كان حصل لها ارتقاء — قديماً وسريعاً. «وان كانت هذه الافراد تتفرّع حقًّا عن خلية اصلية، فان التطوّرات التي لزمت لتسير بتلك الخلية الى الامثلة تؤلف بالحقيقة ارتقاء عظيماً اسرع مما لا يُقاس من الارتقاءات التي حصلت في ما ولي ذلك من الزمان » (ص ٣٢٩)

اما الامثلة الصورية فانها تقابل الطائلات او الاشكال المختلفة التي يمكن ان يتشكل بها مثال ترتيبي من الفئة الاولى. وقد امكنها ان ترتقي على مدة اطول. فظهرت بالتدريج مرتقية شيئاً فشيئاً (ص ٣٠٠–٣٥١) . وهذه الامثلة ، تراها اقلّ تغيّرًا من الانواع التي تظهر كانها تطوراتها العرضية (ص ١٧٦–٣٠٦)

وان هذه الامثلة الصورية (التي يدعوها الاستاذ ڤيالتون بعض الاحيان « انواعاً » متوسّعاً بمعنى هذه اللفظة) تدل على جواهر (substances) اي على اشياء «يمكنها ان توجد بذاتها» و«هي كائنات حقيقية . . . واشخاص تسود الاشياء . . . يقابل كل منها فكرة افلاطونية او فكرةً مُبدعة.» (ص ٣٠٦ و٣٠٧) . فايّ غرابة ، والحالة هذه ، في ان يكون لهذه الامثلة ارتقاء كما للافراد ؟

ولكن كيف نشرح اصل هذه المخلوقات ؟

هل خُلقت دفعةً واحدة على ما هي ؟ ام هي نتيجة تطوّرات حصلت لاشكال انقرضت قبل عصرنا فجهلناها ؟ يجيب الاستاذ عن هذه الاسئلة باننا لا نعرف شيئاً ! (ص ٣٧٨) على انه يقول : قد يكون حصل فيها — وهو المرجّح — تحوّل فجائي من شكل قديم الى شكل آخر (mutation). « على اننا لو فرضنا ان كل مظهر من الاشكال الجديدة كان نتيجة تحوّل فجائي في الاشكال القديمة ، فان هذا لا يشترك في شيء مع نظرية التطوّر المدرسية المعروفة. بل يكون ان الطبيعة تستعين بالجوهر الحيّ الموجود سابقاً لتصنع اشكالاً جديدة . ولكن هذا التغيير يكون من الكمال بحيث انه يعادل خلقاً حقيقيًّا » (ص ٣١٩) . هذا « وان الصورة التي تطرق الذهن حالاً (وذلك كي يتمكن الانسان من تصوّر الارتقاء في ذوات الفقرات مثلاً) هي صورة شهب نارية (تسطع فجأة على شكل حزمة تتفرّع عنها الاسهم المختلفة). ولكن

يجب ان تزيد ان تلك الحزمة النارية تتداخل اجزاؤها بعضها ببعض على طريقة تجعلها تسطع بترتيب في اوقات متتالية .» (ص ٣٤٤).

٤ تقييم نظرية التطور

وبينا الاستاذ ڤيالتون يتبسط في آرائه ، يعرض لنظرية التطور فينتقدها ، في سيره ، على طريقة تجعل عرض النظرية وتفنيدها يتداخلان ويتتابعان دون ترتيب في هذا المجلد الوافر الغموض والابهام . فهو تارةً يناظر الحيكين ، وطوراً ارباب الارتقاء الثاني القائلين بوحدة العرق الاصلي . حتى ان هاتين المناظرتين تتداخلان ايضاً على طريقة مزعجة ، وكان من حقهما ان تنفصلان كل واحدة عن الاخرى.

ولم اكن لادخل في دقائق البراهين الفنية الخاصة لانها اصعب من ان يحكم عليها من ليس من ارباب الاختصاص. ولكنَّ البراهين المهمّين اللذين يفتد بهما الاستاذ ڤيالتون نظرية التطوّر هما مما يدركه جمهور المطلعين، وان سطحيا، على هذه الابحاث. فلو جارينا المؤلف على رأيه ، للزمنا القول ان نظرية التطوّر مدينة في ذيوعها وشهرتها الى سببين مهمّين: «الاول: كونها تحلّ بطريقة بسيطة تفهمها جميع العقول تلك المسألة العويصة العظيمة ، الا وهي مسألة تكوين العالم الحي واصل الانسان.. » والثاني : كون الناس خلطوا بين نظرية التطور ونظرية الارتقاء . » (ص ٣٧٥) فهذا « خلط خفي تحت الالفاظ » (ص ٣٦٠) فنتج عنه ان العلماء أسرعوا في استنتاجاتهم ، فعمموا ، دون انتباه ، نتائج ما تحققوه في مجال بعض الانواع على مجال الارتقاء العام . (ص ٣٧٤)

اما كون الخلط بين مدلول الالفاظ ، واستعمال القياسات السفسطائية ، والسذاجة في التعميم ، عملت على نشر نظرية التطوّر ، فهو ما اعتقده دون صعوبة . واما كون هذه الامور هي الاسباب المهمة في انحياز بعض العلماء الى هذه النظرية ، فهو ما يمكننا ان نشكّ فيه. لان المشكلة اصعب مما يتصوّرها الاستاذ .

٥ النتيجة

ان كنت قد توفّقت في اختصار افكار الاستاذ ڤيالتون ، فللمطالع ان يحكم على قيمة « الوهم في نظرية التطور » .

هذا وبما ان الاستاذ حصر لفظة « تطور » — ولا نعلم باي حق ؟ — بمعنى الارتقاء الجيلي المرتّب الدائم ، اصبح من السهل عليه ان يخرق صدر هذا المسكين الاعزل بضربات حسامه البتار . ولا فخر ! فقد اختار ما يوافقه ، وجعل « التطوّر » في مركز يهون عليه فيه ان يزيفه ويقضي عليه بل هو يُكثر الاهتمام بالقضاء على ذلك « التطور » الوهمي . . ومَن يهتمّ اليوم ، خارجاً عن محيط الابتدائيين من اشباه العلماء ، بتأييد نظريات داروين وهيكل كما هي بعجرها وبجرها ؟

اما نظرية التطور الثاني (transformisme finaliste) — واني احتفظ بهذه اللفظة لانها ادقّ من لفظة الارتقاء (évolution) — فلا يتركها الاستاذ ڤيالتون فحسب ، بل هو يقدم لها وثائق قيّمة مستندة الى خبرته وتضلّعه من هذا الفن . كما انه يأتي ببعض تحفّظات ايضاً منها نظرية تعدّد الاصل (polygénisme) ونظرية التحول النجائي (mutationisme) . . . واني ابعد من ان اتدخل في هذه المناقشات الداخلية . على انني اعترف بان براهين المؤلف في ما خصّ النظرية الاولى ، اي تعدّد الاعراق لم توثّر بي كثيراً ، لانه يظهرها مظهر الحقائق البديهية التي لا تحتاج الى تأييد . . . وهل من الوضوح بالمكان الذي يدعيه المؤلف ان نظام الكائنات الحية كان منذ البدء وافر التمييز ، وان صفة الحسّ كانت معاصرة للحياة النباتية مثلاً ؟

اما ما يحاوله المؤلف من الشروح الرامية الى ما وراء الطبيعة فهو اضعف مما تقدّم واوهى . لان الموضوع يتطلب شيئاً فوق الاطلاع العلمي والنية الصالحة . . .

هذا ، وفي نظري انه كي نتمكن من حلّ مشكلة التطوّر ، وان حلّاً وقتياً ، على طريقة مقبولة ، يلزمنا رجل « عالم » ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، اي رجل كاريسطو ، ولكن في عصر اوفر معارف وادقّ مشاكل ، يجمع في شخصه ، الى درجة سامية ، علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة .